
مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق الله الصادق الأمين صاحب السيرة الزكية محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه وبعد:

علم التاريخ من العلوم الإنسانية التي لها دوراً أساسى فى حياة الأمم والشعوب والحضارات على مر العصور والأحقاب والأزمنة، بل لا يوجد شىء فى الوجود إلا وله تاريخ، فلهذا حرصت كل الحرص على تقديم كتاباً هاماً للمكتبة العربية «الفوز بالمراد فى تاريخ بغداد» لسليمان الدخيل المؤرخ. فقبل تناولنا محتويات الكتاب نلقى الضوء على مدينة بغداد على مر العصور حتى سقوطها فى أيدي الأتراك فيقول الدكتور عصام عبد الرؤوف فى كتابه الحواضر الإسلامية.

تمهيد: خطط بغداد وتطورها فى العصر العباسى الأول:

كان من الطبيعى ومن المنتظر أن يرفض العباسيون - بعد أن أقاموا دولتهم على أنقاض الدولة الأموية - الأبقاء على مدينة دمشق حاضرة للخلافة ذلك أن بلاد الشام كانت مقر بنى أمية، وبها عصبيتهم من العنصر العربى الذى يناصرهم، ويرفض انتقال الخلافة إلى غيرهم، لذا نقل العباسيون حاضرة دولتهم إلى العراق قريباً من أنصارهم الفرس الذين أقاموا ملكهم على أكتافهم، وبذل الفرس أموالهم ودمائهم فى سبيل إقامة صرح دولتهم، يضاف إلى ذلك أن بلاد العراق غنية بمواردها الطبيعية، وفى مأمن من غارات البيزنطيين لبعدها عن

حدودهم^(١). وأصبح العراق بعد انتقال قسبة الدولة اليه - حلقة الاتصال بين العنصرين العربي والإيراني اللذين يتألف منهما الجماعة الإسلامية^(٢).

ولم تكن كل من الكوفة والبصرة - وهما المدينتان الكبيرتان اللتان كانتا موجودتين منذ الفتح العربي الأول للعراق - تصلح لأن تكون حاضرة للدولة الجديدة ذلك أن أهل الكوفة كان معظمهم شيعة يعارضون الحكم العباسي بل ويسعون إلى نقل الخلافة للعلويين، أما البصرة فلم تكن تصلح هي كذلك لوقوعها في الجنوب لذلك أقام أبو العباس السفاح - أول خلفاء الدولة العباسية - في الحيرة^(٣). وفي سنة ١٣٤هـ انتقل إلى الأنبار وبنى مدينة على شاطئ الفرات، سماها الهاشمية نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف^(٤)، وتوفى أبو العباس قبل أن يتم بناء المدينة، ولما ولي أبو جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦هـ لم يشأ أن يقيم في مدينة أخيه وسلفه أبي العباس، إذ بنى مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية أيضاً، وأقام بها لكنه لم يلبث أن كره سكنائها لما ثارت عليه الراوندية^(٥). كما أن قربها من الكوفة - ومعظم أهلها يناصر العلويين - جعلته لا يشعر بالطمأنينة، لأنهم قد يثورون عليه في أى وقت، وفعلاً أفسدوا جنده وأنصاره عليه^(٦).

وعلى ذلك فقد عول المنصور على تأسيس حاضرة جديدة لدولته، فخرج بنفسه يرتاد لها موضعاً يتخذ مسكناً لنفسه وجنده وبنى به مدينته، فبدأ فأنحدر إلى جرجرايا^(٧) ثم صار إلى بغداد، ثم مضى إلى الموصل ثم عاد إلى بغداد

(١) اليعقوبي: البلدان ص ٢٢١

(٢) ENCY of ISLAM: Art Baghdad

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، حوادث سنة ١٣٤هـ.

(٤) le Strange: Baghdad during the Abbasid caliphate p.8

(٥) الراوندية قوم من أهل خراسان كانوا يقولون تناسخ الأرواح، ويزعمون أن روح آدم أنتقل إلى رجل من كبارهم، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور، وطافوا بقصره وقالوا: هذا نصر ربنا. فأمر المنصور بالقبض على رؤسائهم فغضب الباقون وثاروا عليه، فأخذ المنصور ثورتهم، ونكل بهم.

(٦) ابن طباطبا: الفجرى فى الآداب السلطانية ص ١٤٣.

(٧) بلد من أعمال النهران الأسفل بين واسط وبغداد (ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص.

وضرب عسكره على الصرأة، وتدبر موقعها فاعجبه وقال: هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شئ يأتينا فيها كل ما فى البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية^(١) وما حول ذلك، وهذه الفرات يجئ فيها كل شئ من الشام والرقه وما حول ذلك، كما أنه لاحظ خصب البقعة التى تقع فيها بغداد، الأمر الذى ييسر لسكانها رغد العيش، يضاف إلى ذلك سهولة الدفاع عن موضوع بغداد، فإن هاجمها أحد كانت دجلة والفرات وروافدهما خنادق لها، فإذا خربت القناطر احتاج العدو إلى العبور، لذلك فإن الهجوم عليها أمر صعب^(٢).

أصاب المنصور فى اختياره لبغداد حاضرة لدولته، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته عن الشروط الواجب توافرها فى الحاضرة فقال: أما أن تقع على هضبة متوعرة من الجبل، وأما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها بعد العبور، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات.

وكانت الأرض التى تقع فيها بغداد منذ القدم من أهم مراكز الحضارة، وازدهرت فيها بصفة خاصة الثقافة الشرقية القديمة، وكانت من أهم المراكز التجارية حيث تلتقى فيها عدة طرق تصلها بمختلف البلاد، وشهدت هذه الأرض الحواضر^(٣) عظيمة مثل بابل وسلوقية والمدائن وورثت بغداد هذه بل واستخدم فى بنائها انقاض مدينة المدائن التى تبعد عنها بضعة كيلو مترات^(٤).

أحاط بتأسيس مدينة بغداد روايات من نسج الخيال رواها الكتاب العرب، فذكروا أن رهبان الدير القريب من مدينة بغداد سأل المنصور عن الرجل الذى يريد بناء المدينة، فقليل له المنصور، فقال الراهب للرجل: اذهب إلى صاحبك وقل له لا يتعب نفسه فى بناء هذه المدينة، فأنا نجد فى كتبنا أن رجلاً اسمه

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك - حوادث سنة ١٤٥هـ.

(٢) مقدمة: ابن خلدون ص ٣٤٣.

(٣) Ency. of Islam. Art Baghdad

(٤) Hitti: Hist, of the Arabs P.242.

مقلاص بينى ههنا مدينة، ويكون لها شأن من الشأن، وأن غيره لا يتمكن من ذلك، فجاء الرجل إلى المنصور وأخبره بما سمع، فقال المنصور: أما والله كان اسمى مقلاصاً، أطلقته على مربية عجوز لى^(١) والدليل على عدم صحة هذه الرواية أن الغيب لا يعلمه إلا الله.

ويرجع ترديد الكتاب العرب لهذه الرواية إلى أن الاعتقاد فى التنجيم كان شائعاً فى ذلك العصر حتى أن المنصور وضع أساس مدينته فى الوقت الذى اختاره له المنجمون، وبشروه بطول بقائها وكثرة عمارتها^(٢) على أننا نلاحظ أن الأساطير أحاطت بتأسيس المدن الكبرى مثل أتينا وروما ودمشق.

كانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الساسانيين المتأخرين وتقع على الشاطئ الغربى لنهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهر الفرات بدجله، وكان يعقد بها سوق شهري يأتيه التجار من بلاد الفرس والصين، وتعرضت للغزو العربى سنة ١٣هـ حينما هاجمها المثنى بن حارثة الشيبانى، واستولى عليها، وغنم من غزوها مغانم كثيرة^(٣)، وقد أثبت البحث الحديث وجود مدينة قديمة فى موضع بغداد أثبتته المكتشف الإنجليزى السير هنرى رولنسون سنة ١٨٤٨م، وظهر اسم بختنصر الثانى على أحجار هذه المدينة، وقامت فى هذا المكان أيضاً مدينة تشبه فى تسميتها ببغداد^(٤).

اختلف الكتاب والمؤرخون حول معنى كلمة بغداد فيعتقد البعض أن بغداد كلمة فارسية تتركب من باغ ومعناها بستان وداد رجل، وقيل أن بغ اسم لصنم وداد أعطى وقيل أن تسمية بغداد باغ داذوية لأن موضع بغداد كان باغا لرجل من الفرس يسمى داذويه، ولكننا نرجح أن كلمة بغداد معناها عطية الله أو هبته^(٥).

(١) الطبرى: تاريخ الأسم والملوك حوادث سنة ١٤٥ هـ.

(٢) المصدر نفسه السابق حوادث سنة ١٤٥ هـ.

(٣) le strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate p.9

(٤) ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص ٢٣٢.

(٥) le strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate p72.

وسميت بغداد أحياناً بَعْدَاد، وأحياناً أخرى بَعْدَاد^(١). على أنها اشتهرت باسم مدينة السلام، واختلف المؤرخون كذلك حول هذه التسمية فبعضهم ذكر أنها سميت بهذا الإسم قبل أن يبنيتها المنصور، ويرى البعض أن اسمها اشتق من اسم نهر دجلة المدعو نهر السلام. ولكن الأرجح أن المنصور رغب في اطلاق تسمية عربية على بغداد فدعاها دار السلام، لأن الله هو السلام أو لعل المقصود هنا الجنة فقد ورد في القرآن الكريم عن الجنة ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة الانعام الآية ١٢٧.

«والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومهما يكن من أمر فقد كان الشعراء والأدباء وسائر الناس يطلقون على الحاضرة الجديدة بغداد أو بغداد، وأحياناً يطلقون عليه الزوراء لأن قبلتها غير مستقيمة، يحتاج المصلى في المصلى في مسجد الجامع إلى أن ينحرف جهة اليسار^(٢)، أو أن أبوابها الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجية أى ليست على سمتها، على أننا نلاحظ أن كثيراً ما كان يتردد ذكر دار السلام في المكاتبات الرسمية وعلى العملة^(٣).

تأسست مدينة بغداد في موضع عدة قرى منها بغداد والمخرم وبستان القس والعتيقة، وحرص المنصور على أن يطمئن على أحوال هذه القرى الصحية والمعيشية، فاستدعى رؤساءها وسألهم عن أحوال قراهم، فطمأنوه على حسن اختياره، ولم يكتف بذلك بل عهد إلى بعض رجاله بأن يبيتوا في هذه القرى، ويدرسوا أحوالها، فلما انتهوا من مهمتهم، قدموا على المنصور، وأجمعوا على أفضلية هذه عما سواها فازداد المنصور تفاؤلاً بنجاح المشروع الذي أقدم عليه^(٤).

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص٢٦.

Hitti: Hist. of the Arabs p.292

(٢) الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٤٥-١٤٦.

(٣) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٤٥هـ.

(٤) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص١٧-١٨.

عول المنصور على الإستفادة بكافة الخبرات الموجودة في مملكته في انجاز مشروعه الكبير، فاستدعى إليه من كل بلد من بلدان دولته المهندسين، وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالزراع والمساحة وقسمة الأرضين والبنايين والفعلة والصناع من الحدادين والحفارين والنجارين حتى اجتمع لديه على ما قيل - نحو مائة ألف من أرباب المهن والصناعات، وحدد لهم رواتب وأجور معلومة، وأسند مهمة الإشراف على عملية البناء إلى رجال ممن يثق بهم من ذوى الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة، فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت^(١).

أشرف المنصور بنفسه على تخطيط مدينته الجديدة، فأمر بوضع خطوط بالمرماد تمثل رسم المدينة الهندسى الذى أقره، ودخل من كل باب من أبوابها وعبر في فصلانها وطاقتها ورحابها، وشاهد تخطيطها على الطبيعة، ولم يكتف بذلك، بل أمر بوضع حب من القطن على الخطوط المرسومة في موضع بغداد، وصب النفط عليها ونظر إلى موضع المدينة، والنار تشتعل، فشاهد رسمها، واطمأن إلى حسنه وقال: «الحمد لله الذى أخرجها لى» وأغفل عنها كل من تقدمنى «والله لأبنيها ثم اسكنها أيام حياتى، ويسكنها ولدى من بعدى، ثم لتكونن أعمر مدينة فى الأرض»^(٢).

افتتح المنصور مشروع تأسيس مدينته فى يوم تاريخى مشهود حضره كبار رجال الدولة^(٣)، ووضع أول لبنة بيده وقال: «بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»^(٤) ثم أمر عماله بأن يبدأوا فى البناء على بركة الله.

على أن بناء بغداد لم يقدر له أن يتم سريعاً، فلما بلغ سور بغداد مقدار

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٤٥هـ.

(٢) اليعقوبى: البلدان ص ٢٤١.

(٣) Hitti: Hist. of the Arabs p.242. (٣)

(٤) le strange: Baghdad during the Abbasid Coliphate p.9 (٤)

قامة، أمر المنصور بوقف البناء بعد أن نمت إلى علمه انتفاض محمد ذى النفس الزكية بالمدينة المنورة عليه، وأقام بالكوفة حتى فرغ من قمع ثورة العلويين بقيادة الأخوين محمد وإبراهيم، وعاد إلى بغداد ليستأنف عملية البناء، وكان مولاه أسلم قد أحرق ما أعد لبناء المدينة من الخشب والساج خوفاً من أن ينتصر العلويين ويزحفوا إلى بغداد ويستولوا على أدوات بنائها^(١).

ومهما يكن من أمر فقد استأنف المنصور بناء مدينة بغداد، وجعلها مدورة، ويذكر اليعقوبى^(٢) أنه لا يعرف فى جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها.

وبنيت المدينة مدورة لثلاثين ملكاً إذا نزل وسطها إلى موضع منها أقرب منه إلى موضع^(٣).

أحاط المنصور مدينته بسورين، وجعل للبلدة أربعة أبواب للسور الداخلى ونظير لهذه الأبواب بالسور الخارجى، وأول هذه الأبواب باب خراسان ويسمى باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان، والثانى باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة، والثالث باب الشام وهو من ناحية الغرب، والرابع باب البصرة وهو بمقربة من دجله^(٤) فكان القادم إلى بغداد أو من الشرق يدخل من باب خراسان، والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة، والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام، والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة، وكان بين كل باب من أبواب المدينة والباب الآخر مسافة تقدر بميل.

عنى المنصور بتحسين مدينته، فأحكم بناء السورين، وجعل للمدينة أبواباً متينة من واسط والكوفة والشام، ونصبها على أبواب خراسان والكوفة

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٤٦هـ.

(٢) اليعقوبى: البلدان ص ٢٤.

(٣) le strange: Baghdad during the Abbasid Coliphate p.9

(٤) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٤٥-١٤٦.

(٥) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٢٣٥.

والبصرة، أما باب الشام فقد صنع في بغداد، وكان أضعف الأبواب^(١).

أقيم على كل باب من الأبواب الأربعة سواء السور الداخلى أو أبواب السور الخارجى طاقات، وعلى كل باب من أبواب السور الداخلى قبة معقودة مذهبة، ويصعد إلى هذه القباب على عقود مبنية بالجص والأجر، وبعضها باللبن، ولكل باب من هذه الأبواب التى على السور الداخلى قائد فى ألف جندى، يتولون مراقبة القادمين والخارجين من المدينة وتمكنهم القباب على الأبواب من رصد الحركة المتجهة إلى بغداد من مسافات بعيدة^(٢).

حرص المنصور على تقوية وسائل الدفاع عن مدينته، فشىد لها سورين - كما قلنا - سور داخلى وسور خارجى، ويحيط بالسور الخارجى من الخارج خندق عميق أحكم بناؤه، وله حافتين بالجص والأجر، وأجرى فيه الماء تأخذ من نهر كرخايا، وكان عرض السور الداخلى من أسفله خمسون ذراعاً ومن أعلاه عشرون ذراعاً، ويطلق عليه اليعقوبى السور الأعظم، أو سور المدينة، أما السور الخارجى فكان إرتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه كعرض السور الداخلى، وبين السورين فصيل، وكان يسمى سور الفصيل، وعلى السور أبراج، وبنيت عليه شرافات، وبين حائط السور حائط الفصيل مائة ذراع^(٣).

قلنا أن مدينة بغداد بنيت مدورة، وكان قطرها من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٠٥ ذراعاً ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك، واتخذ المنصور المسجد الجامع وقصره فى الرحبة التى هى فى وسط المدينة أو بعبارة أخرى مركز الدائرة للمدينة^(٤) وعنى المنصور تشييد قصره وسماه باب الذهب، وكان فى وسطه القبة الخضراء، التى كانت ترى من أطراف بغداد، وكان على رأس القبة

(١) Hitti: Hist. of the Arabs p.293.

(٢) اليعقوبى: البلدان ص ٤٠.

الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٧٤-٧٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٧١.

(٤) le strange: Baghdad during the Abbasid Coliphate p. 17

تمثال على صورة فارس فى يد رمح، وتحت القبة مجلس بمستوى سطح الأرض مساحته عشرة أمتار فى مثلها، وفى صدر المجلس الأسفل ايوان عظيم على الطراز الفارسى، وارتفعت القبة الخضراء على علو يزيد على ثمانين ذراعاً ليشرف منها على جهات المدينة وما يجاورها من البساتين، كما أنه عنى بتجميلها بالرسوم البديعة ليكون منها للدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتدار على عظام الأعمال، فظهرت وكأنها أكليل من نور قد تدلى على قصر السلام^(١).

اتخذ المنصور ومعظم خلفاؤه فى العصر العباسى الأول قصر باب الذهب أو قصر السلام مقراً لهم، ولم يبق فيه الخليفة الرشيد غير أن الأمين اتخذه مقراً له وأضاف إليه بناءً جديداً، واعتصم الأمين بهذا القصر أثناء حصار قوات المأمون لبغداد وتعرض القصر للتخريب والتدمير من ضربات طاهر بن الحسين العنيفة. أما القبة الخضراء فظلت قائمة على حالها، وبلغت مساحة قصر باب الذهب ١٦٠,٠٠٠ ذراعاً مربعاً^(٢).

روعى فى تأسيس المدينة الإسلامية بناء مسجد جامع لها، فأنشأه يدل على طابعها الإسلامى، وقد أقام المنصور مسجد بغداد الجامع مجاوراً لقصر باب الذهب وكان محرابه منحرفاً عن القبلة، وبناء المنصور باللبن، ذلك أنه شيد بعد بناء القصر، ولكى يكون وضعه متناسباً مع وضع القصر أصبح منحرفاً محرابه عن القبلة وكان سقف المسجد قائماً على أساطين من خشب، ولكل أسطوانة تاج مدور مصنوع من قطعة خشب، وبقى هذا الجامع بهذه الصورة حتى ولى الرشيد الخلافة فعول على تجديده سنة ١٩٢هـ. فأمر بهدمه وإعادة بنائه بالجص والأجر، وكتب عليه اسم الرشيد وذكر أسماء بنائه ومشيديه وتاريخ البناء وقد تم ذلك سنة ١٩٣هـ وصار يعرف هذا الجامع بالصحن العتيق^(٣).

قلنا أن مركز الدائرة بها القصر والمسجد الجامع، ولم يكن حولهما بناء ولا دار

(١) اليمقوى: البلدان ص ٢٤١.

(٢) le strange: Baghdad during the Abbasid Coliphate p. 19. (٢)

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٦.

ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفه كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالأجر والجص، يجلس في أحدهما صاحب الشرطة وفي الأخرى صاحب الحرس، وحول الرحبه تدور منازل أولاد المنصور الأصغر ومما يليه وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان النفقات ومطبخ العامة^(١).

على أن المنصور لم يكف بقصر باب الذهب، إنما عول على إتخاذ قصر آخر له باطراف المدينة، ولعل المنصور بعد أن شيد مدينة بغداد شعر أنه منعزل في قصر باب الذهب في وسط المدينة لتزايد السكان من حوله، فأقام لنفسه قصر الخلد، وأصبح أجمل المواضع التي ببغداد ويقع على الضفة الغربية مما يلي باب خراسان، وسماه الخلد نسبة إلى حدائقه الواسعة وتشبيهاً بجنة الخلد وما يحويه من كل منظر رائع ومطلب فائق وغرض غريب ومراد عجيب، وفضل الرشيد الإقامة فيه بدلاً من قصر باب الذهب، وعاش فيه طوال خلافته تقريباً^(٢).

اشتملت مدينة بغداد على أربع شوارع رئيسية، تفرعت من أبواب السور الداخلى الذى يحيط بالرحبة، وهذه الشوارع تتخذ صورة محاور الدائرة، ويتجه إلى خارج المدينة وتنتهى عند الخندق^(٣)، وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية التي بنيت على نمط واحد وأحسن تنسيقها، وتفرعت من هذه الشوارع سكسكا^(٤) ودروباً عرفت باسم قواد المنصور ومواليه أو الإسم الذى يغلب على سكان السكة أو الدرب. وعلى سبيل المثال لا الحصر، الشارع الممتد من باب البصرة إلى باب الكوفة تتفرع منه سكة المطبق، والمطبق سجن بغداد، وثيق البنيان محكم السور، والشارع من باب البصرة إلى باب خراسان سكة

(١) ابن طباطبا: الفخرى في الأدب السلطانية ص ٢٢١.

le strange: Baghdad during the Abbasid Coliphate p. 26.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١ ص ٧٥.

le strange: Baghdad during the Abbasid Coliphate p. 32.

(٤) اليعقوبى: البلدان ص ٢٤١.

الحرم وسكة الربيع وهكذا، ومن باب الكوفة إلى باب الشام شارع يخرج منه سكة العلاء وسكة نافع... الخ.

والشارع من باب الكوفة إلى باب خراسان يتفرع منه سكة الحكم بن يوسف وسكة صاعد مولى أبي جعفر.

وفى كل سكة من هذه السكك جلة القواد الموثوق بهم وجلة موالى الخليفة المنصور، ومن احتاج إليهم فى مهام الأمور، وحرص المنصور بأن يراعى فى تخطيط السكك والدروب ما يحتاجه الناس من مرافق كالمساجد والحمامات والأسواق وأن تتسع هذه السكك لإقامة المساكن والمنازل والمساجد.

ولكى ييسر المنصور أمر تشييد مدينته، قسم المدينة إلى أربعة أرباض فى نواحي، وعهد إلى أربعة من رجاله المقربين إليه بأن يشرف كل واحد منهم على تأسيس ريبض، ومنحه الأموال اللازمة لتأسيس ريبضه، وأمرهم بأن يتوسعوا فى إقامة الأسواق فى الأرباض بحيث يكون فى كل ريبض سوق جامعة يضم مختلف التجارات وأن يجعلوا لكل ريبض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل، وأمرهم بأن يجعلوا عرض الشارع خمسين ذراعاً، والدرب ستة عشر ذراعاً وأن يبنوا فى جميع الأرباض المساجد والحمامات ما يكتفى بها فى كل ناحية ومحلّه، وأمر أن يجعلوا من قطائع القواد والجند ذراعاً معلوماً للتجار بينونه وينزلونه هم وأهل البلدان الأخرى^(١).

ولما فرغ المنصور من عمارة بغداد أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض رغبة فى تخفيف الضغط على بغداد من جهة ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى، وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها، فمن بينها قطعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على الصراة وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر، وكانت على

(١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢١.

الصراة أيضاً، وقطيعة الربيع بن يونس - مولى المنصور - وكان بها تجار خراسان من البزازين، وقطيعة صالح بن المنصور وقطيعة الحرب بن عبد الله - أحد أصحاب المنصور - وسرعان ما اتسعت هذه القطائع، وازداد إقبال الناس على سكنائها، وظلت تحمل اسم أصحابها مثل العباسية والصالحية والحربية^(١).

حرص المنصور على توفير المياه بأرض بغداد، فأمر بشق قناة تأخذ من نهر كرخايا - أحد روافد الفرات - تمر بداخل بغداد، وقناة أخرى تأخذ من دجلة مباشرة، وسماها دجيل، وجر لأهل الكرخ وما اتصل به نهر يقال له نهر الدجاج وأدى توفر المياه إلى غرس الناس النخيل الذي جلب من البصرة وغرسوا الأشجار، فأثمرت وأينعت، وبذلك امتلأت المدينة وضواحيها بالحدائق والمتزهات البديعة^(٢). وعينت الحكومة في بغداد بنظافة المدينة، فلم يكن يسمح قط بإلقاء القاذورات على جانبي الطرق أو الأزقة، وأما كانت الشوارع تكنس وترش بأحسن نظام^(٣).

يبالغ اليعقوبي^(٤) في ذكر عدد مساجد وحمامات وأسواق بغداد فيذكر أن المساجد كانت ثلاثين ألفاً، والحمامات عشرة آلاف، وهذه الأرقام مشكوك في صحتها. لأن مدينة بغداد بتصميمها ومساحتها لا يمكن بحال من الأحوال أن تتسع لهذه الأرقام التي ذكرها اليعقوبي، على أننا نعتقد أن ما رواه اليعقوبي يدل على كثرة مرافق هذه المدينة.

على كل حال عنى المنصور بتأسيس مدينته، وأقام لها المرافق الضرورية والأسواق في كل ريف، على أن المنصور عاد فأمر بنقل الأسواق إلى الكرخ خارج المدينة، وجعل لكل تجارة شوارع معلومة وصفوفاً في تلك الشوارع وحوانيتها، ويرجع السبب في نقل المنصور الأسواق من داخل المدينة إلى

(١) اليعقوبي: البلدان ص ٢٥٠.

(٢) ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص ٢٣٦.

(٣) المصدر السابق ذكره ج٢ ص ٢٣٦.

(٤) البلدان ص ٢٥١.

خارجها إلى أنه خشى أن يضم الغرباء الذين يبيتون في السوق جواسيس، وجعل مدينته للشرطة والحرس وسائر السكان. وكان الكرخ - وهو السوق الذي اختاره المنصور - يقع ما بين الصراة ونهر عيسى، ثم أمر ببناء مسجد في السوق الجديد، ولما كثر الناس ضاقت عليهم هذه الأسواق، فبنوا أسواقاً من أموالهم حتى اتسع الكرخ^(١). ومع ذلك فقد أمر المنصور بأن يبقى في كل ربض يقال واحد لبيع الأشياء اليومية التي لا غنى للناس عنها. وبمرور الزمن اتسعت بغداد حتى صار الكرخ في وسطها^(٢).

لم يكتف المنصور بتأسيس مدينة على الضفة الغربية لدجلة، بل عول سنة ١٥١هـ، على توسيعها، وذلك بإقامة مدينة جديدة على الجانب الشرقي لدجلة، وأقامها فعلاً وسماها الرصافة، وعمل لها سوراً وخندقاً ومسجداً جامعاً وقصراً، وأجرى لها الماء، ويرجع السبب فيما شرع فيه المنصور أنه خشى من اجتماع جنده في مكان واحد، أقصد الضفة الغربية، فرأى تفريقهم على جانبي دجلة، فإذا ثار عليه جند الضفة الغربية ضربهم بجند الضفة الشرقية، وأمر ابنه المهدي بالإقامة في الرصافة مع عسكره، وأقطع المنصور أخوته وقواده نواحي في البلدة الجديدة، وتنافس الناس في النزول بالرصافة لمحبتهم المهدي ولاتساعة عليهم بالأموال والعطايا، ولأن الرصافة كانت أوسع الجانبين أرضاً. ذلك أن الناس قد سبقوا إلى الجانب الغربي، ولم تلبث أن عمرت الرصافة بالأسواق ومنازل التجار والجند وسائر الناس^(٣).

اتسع الجانب الشرقي من بغداد واستقرت فيه الأسر الغنية وأتباعها من الموالي والعيبد الذين يبلغ تعدادهم بضعة آلاف، وشيدت في الرصافة قصور فخمة أهمها قصر جعفر بن يحيى البرمكي، وأتخذة للهو والطرب وكان القصر في موقع حسن لإطاله على دجله وصار إلى المأمون منزل صيده وقنصه، وبنى حوله

(١) ياقوت: معجم البلدان ج٢ ص ٢٢٣.

(٢) اليعقوبي: البلدان ص ٢٣٦.

(٣) ياقوت: معجم البلدان ج٤ ص ٢٥٤.

وقريباً منه منازل لخاصته وأصحابه وحاشيته سميت بالمأمونية^(١). كذلك توسع الناس فى البناء فى القسم الشرقى، فبنوا فيه القصور المنيفة والمنازل المزخرفة، اتخذوا الأسواق والمساجد والحمامات، وأقطع المهدي رجاله مواضع بها، وبنواحيها، ونشأت فى الرصافة عدة محلات أهمها أبى حنيفة وبها مقبرة الإمام أبو حنيفة ومحلة باب الطاق، والطاق قسماً من أقسام قصر لإحدى بنات المنصور، ثم صار فى زمن الرشيد مجمعاً للشعراء، وإلى جوار هذا الطاق سوق الصاغة ودار صاحب شرطة المهدي، كذلك نشأت محلة دار الروم نسبة إلى أسرى الروم الذى أنزلوا فيها فى عهد الخليفة المهدي، فشيّدوا هناك ضيعة ودوراً لهم.

وازدهرت محلة الشماسية فى عهد الرشيد لأن البرامكة اتخذوا قصورهم بها، فشيّد يحيى بن خالد قصره المعروف بقصر الطين بها، كذلك اتخذوا ولديه جعفر والفضل قصرين هناك. وامتدت قطائع البرامكة من الشماسية حتى البردان^(٢).

كذلك برزت محلات أخرى فى الرصافة نخص بالذكر منها سوق الثلاثاء، وقد نشأت إلى جوار هذه المحلة محلّتان على ضفاف دجلة تسمى إحداهما محلة دار دينار الكبرى والأخرى دار دينار الصغرى نسبة إلى دينار بن عبد الله - من موالى الرشيد - وكان من أجل القواد فى زمن المأمون.

وصفوة القول أن بغداد صارت من أمهات المدن الإسلامية، بل والعالمية فى العصر العباسى الأول، ومركز العلم والثقافة، وأهم مراكز النشاط التجارى فى العالم، وكثرت ثروتها وازدهرت فى عهد الخليفة الرشيد، وتجلّى ذلك فى بلوغ العمران بها غايته وازدحام الناس بانحائها، وتموجهم كالبحر فى أرجائها، حتى قيل أن تعدادهم زاد على مليون ونصف نسمة^(٣). وهذا العدد الهائل يدل على أنه ليس فى المدن أعين ولا أيسر من الموضع الذى يتكوفون فيه تكوف الرمال^(٤).

(١) ابن الساعى: نساء الخلفاء ص ٧١.

(٢) ابن الساعى: نساء الخلفاء ص ٧١.

(٣) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٣.

(٤) المدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٣.

على أن مدينة بغداد لم تنعم بازدهاها طويلاً، بل تعرضت بعد عامين من وفاة الرشيد إلى التخريب والتدمير، ذلك أن الخلاف نشب بين الأمين والمأمون - ولدى الرشيد - وما لبث أن تطور هذا الخلاف إلى حرب بين الأخوين، وحاصرت قوات المأمون بغداد، أربعة أشهر بقيادة هرثمة بن أعين وظاهر بن الحسين - قائدي المأمون - وعزل هرثمة الجانب الشرقي عن الجانب الغربي، وهدم سور، بينما حاصر ظاهر بن الحسين الجانب الشرقي^(١).

واشتبكت قوات ظاهر بن الحسين مع قوات الأمين في معارك متعددة كان من نتائجها تدمير حي الحربية بعد أن رمى بالنفط والنيران والمنجنيقات وأرسل ظاهر إلى أهل الأرياض يطلب منهم التسليم، فمن أجابه كف عنه، ومن لم يجبه ودخل في طاعته قاتله وأحرق منزله، وظل يغدو ويروح بفرسانه وقواده ورجاله، ويشن هجماته على بغداد ونواحيها حتى أوحشت مدينة المنصور، وخاف الناس أن تبقى خراباً، وأسمى ظاهر الأرياض التي خالفه أهلها ومدينة أبي جعفر الشرقية وأسواق الكرخ والخلد وماوالاها دار النكث، وأستولى على كل أملاك من خالفه من بني هاشم والقواد والموالي، فذلوا وانكسروا وانقادوا، واشتد القتال وضعف أنصار الأمين، وتعرضت المدينة للسلب والنهب حيث واتت الفوضى التي حلت بالمدينة الفرصة للصوص وقطاع الطرق والرعاغ وأهل السوق لسلب الناس والاعتداء عليهم، وهدم ظاهر بعض قناطر بغداد، وشن هجماته^(٢) على الكرخ، وحاصر بغداد، وهاجم قصر أم جعفر وقصر الخلد ونصب المنجنيقات خلف سور بغداد، وقذف المدينة، وتفرق جنده في السكك والطرق لا يلوى منهم أحد على أحد، وتحصن محمد الأمين بالمدينة هو وأنصاره، وشدد ظاهر الحصار، وفي سنة ١٩٨هـ وقع الأمين في الأسر بعد أن حوصر في قصر الخلد، ولم يلبث أن قتل، وتوقفت الحرب بعد أن تحولت بغداد

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٨هـ.

(٢) المصدر السابق ذكره حوادث سنة ١٩٨هـ.

إلى خرائب ورماد حتى أتت النيران على أحياء باكملها ودمرت هذه الحرب قصرى الخلافة، باب الذهب فى وسط المدينة، والخلد على دجلة^(١).

وكان لمقتل الأمين أثر سئ فى نفوس أهل بغداد، فاشتدت معارضتهم للمأمون وثاروا على وزيره الحسن بن سهل حتى غادر بغداد سنة ٢٠١هـ، وزاد أهل بغداد، معارضة المأمون حين بايع لعلى الرضا بولاية العهد وأمر الناس بلبس الخضرة - شعار العلويين - بدلاً من السواد - شعار العباسيين - لذلك بايعوا إبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك وظل يحكم بغداد مدى عامين، غير أن خيانة قواده له، وتمردهم عليه أجبرته على تسليم المدينة وزمام الحكم إلى المأمون، ونزل المأمون بالجانب الشرقى حيث نقل إليه مقر حكمه فى قصر من قصور البرامكة وقام بتوسيعه^(٢).

وقدر لبغداد أن تنزل عن مركزها الممتاز بعد أن انتقلت حاضرة الدولة إلى سامرا، ذلك أن المعتصم جمع جيشاً من الترك بلغ عدة آلاف والبسهم أنواع الدباج، والمناطق الذهبية والحلية المذهبة، وأبانهم عن سائر جنوده، وكان الأتراك يؤذون الناس بمدينة السلام بجريها الخيول فى الأسواق، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك^(٣) وضاق بهم بغداد وتأذى بهم الناس بعد أن راحموهم فى دورهم وتعرضوا بالنساء، فتذمر أهل بغداد وتقدموا بالشكوى إلى المعتصم، فرأى الخلفية ضرورة الانتقال من بغداد مع عسكره، ووقع اختياره على سامرا، وشيدها سنة ٢٢١هـ، وأخذها حاضرة بدلاً من بغداد. وبذلك فقدت بغداد أهميتها كحاضرة إسلامية كبرى.

حقيقة ظلت بغداد محتفظة بقدر كبير من النشاط الأدبى والإردهار الإقتصادى، لكن انتقال حاضرة الخلافة عنها، أفقدها السيادة على المملكة الإسلامية الكبرى.

(١) المسعودى: مروج الذهب ج٢ ص ١٦٦.

(٢) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١١.

(٣) المصدر السابق ذكره.